## الفصل الحادي عشر

# ساحل مدين

بعد أن عزمنا على استئناف رحلتنا في ١٦ فبراير، اكتشفت وجود الكثير من التفاصيل التي يجب إيضاحها وبيانها في أجزاء مختلفة من المنطقة التي ورد وصفها في الفصل الأخير، ولم ننطلق في رحلتنا إلا عند الظهر بعدما استجمعنا قوانا في الحقيقة وغادرنا المخيم. وكانت أصول المجاملة تتطلب منا القيام بزيارة وداع لقائد الشرطة ورجاله، الذين كانوا زواراً دائمين لخيامنا، ومن البدع انطلقنا على طول جبل درك لإلقاء نظرة أخيرة على بئر موسى. والآن ظهر الشيخ محسن على مسرح الأحداث وهو يلحّ في دعوته لتناول العشاء معه في خيامه، ولكن الساعة كانت قد اقتربت من الثانية ظهراً تقريباً، واضطررت مرة أخرى إلى رفض كرمه، على أنني أردفت رفضي هذا بهديةٍ مناسبة وجعلته يقفل عائداً وهو جذل مسرور.

بعد ذلك انطلقنا في رحلتنا بهمّةٍ وحماس على أمل أن نقطع مسافة خمسين ميلاً باللوري الذي كان عُرضة للعطل على فترات

متفاوتة. وقد كانت معلومات سعد عن هذه المنطقة غير صحيحة، على الرغم من أننا قد قضينا تقريباً ساعتين من الحركة الحقيقية (أربع ساعات في الواقع شاملة الوقفات الاضطرارية أو الاختيارية) لنكمل مسافة خمسة وثلاثين ميلاً إلى الخريبة. وعندما وصلنا إلى النقطة التي انطلقنا منها سابقاً لزيارة حُراب فقد واصلنا سيرنا على طول الضفة اليمنى لوادي عفال فوق بعض التلال والمرتفعات الأرضية المنخفضة التي كانت تضيق بالتدريج حتى جبلٍ يفصلها عن قناة وادي قيال الموازية له على يميننا.

وعلى الرغم من أن هذا الوادي يتلقى المياه المنصرفة من التلال والمرتفعات التي يجري خلالها إلا أنه عبارة عن مصب في الحقيقة، يصل إلى البحر على يمين وادي عفال. وبينما ينبسط وادي عفال ويتمدد نحو نهايته في دلتا رملية واسعة ومليئة بشيجرات الأثل، إلا أننا نجد أن وادي قيال يضم بستاناً من النخيل طوله ميل، وتوجد به بيوت قليلة للبدو الذين يأتون لجني التمور.

وفي مناسبة أخرى، عندما كنت -في الحقيقة- ماراً على طول هذا الشريط من النخيل فوجئت بأحد الأعراب يدنو مني ويطلب ماءً للشرب. وحيث إنني قد تضايقت قليلاً من مثل هذه الوقاحة، على اعتبار أنه كان على بُعد مرمى حجر من آبار الواحة، فقد رفضت أن أتوقف، ولم أدرك إلا بعد حين كم كنت مخطئاً؛ إن نخيل وادي

قيال ينمو ويزدهر بشكلٍ أو بآخر اعتماداً على مياه البحر، وآباره كانت شديدة الملوحة. ومن سوء الحظ أنني كنت أسير هذه المرة بعيداً جداً عن هذا المكان حتى إنني لم أستطع معالجة خطئي، الذي لا أقدر إلا أن أشعر بالخزي والخجل من أعماق قلبي. لقد تعرضنا للمشاكل والمتاعب في مناطق معينة ونحن نعبر هذه الدلتا المالحة والامتدادات الرملية لوادي عفال، ولكنا وصلنا إلى فوهته في رقعةٍ صغيرةٍ جداً من نخيل بائس نسبياً. من هنا حتى الطرف العلوي لنخيل قيال كانت المسافة ستة أميال، بينما تفصل مسافة مثلها بستان قيال عن النقطة التي انطلقنا منها لحُراب، أي حوالي ثمانية وعشرين ميلاً من البدع حتى البحر.

وفور أن انعطفنا نازلين للساحل بين البحر وبقعة واسعة من شريط حصوي وجبال على يسارنا، توقفنا للشاي والصلاة، وتوضأنا للصلاة من ماءٍ مالح فاتر. وقد استفدت من فرصة التوقف هذه لأمسح الأرض من قمة جبل ارتفاعه أربعون قدماً، وتمتد جبال تهامة واحداً بعد الآخر في رتابة حتى الساحل لمسافة بعيدة تصل إلى ذرى شار البارزة. ومن سوء الحظ، سرعان ما أصبح واضحاً أن دليلينا، عيداً وزيداً، اللذين كانا لا يزالان معنا، ليس لديهما أي معرفة مهما كانت عن المنطقة الجديدة التي سوف تشهد سفرنا وترحالنا على مدى الأيام القليلة القادمة، وقد استغنيت عنهما بعد

ذلك بفترة قصيرة، وفي الوقت المناسب تركناهما وراءنا في الخريبة. وكان البحر يطوف برفقٍ ولطفٍ على الشاطئ المنبسط، وكان مليئاً بقناديل البحر مختلفة الأنواع وهي مخلوقات كريهة المنظر. وقد كنا الآن في الجنوب تماماً تقريباً من البدع بينما مرتفعات سيناء ظاهرة للعيان، علاوة على الجزر الكثيرة الواقعة في مدخل خليج العقبة، وهي: تيران، وصنافر، وأبو شعشوعة، وبرقان. ولقد سرنا سيراً سهلاً مسافة ثمانية أميال تقريباً حتى الخريبة، وقبل أن نصلها عبرنا قناة وادي عينونة التي يبلغ اتساعها ميلاً قرب اتحادها مع البحر.

إن الخريبة قرية من أكواخ متناثرة مصنوعةٍ من سعف النخيل في عددٍ قليلٍ مبعثر من أشجار النخيل وحولها إضافة إلى مجموعة صغيرة من المباني الحديثة نسبياً على طول الشاطئ ذي المرسى الصغير، بينما كانت نقطة الشرطة المحلية تحتل تلاً رملياً صغيراً على جهة البر من النخيل.

ولقد كنت أنوي أن أقضي الليلة هنا لفحص آثارها، ولكن يبدو أن السكان المحليين الذين قابلناهم ليس لديهم معرفة عن أي شيء أكثر خراباً من مساكنهم البائسة. وحيث إنه قد تطوع أحد الخدم الذي تبدو عليه أمارات الذكاء، يُدعى أحمد، وقدم لنا معلومات عن وجود بعض الآثار القديمة في عينونة عرض علينا أن يدلنا عليها، فقد قبلت عرضه فوراً وانطلقنا دونما توانٍ قبل أن أتيح

للشرطة فرصة اعتراضنا بكرمهم وضيافتهم، وسرنا بمحاذاة الضفة اليسرى على تلالٍ من الحصباء المتموجة، ووصلنا إلى نخيل عينونة في حوالي عشر دقائق (أي اثنين أو ثلاثة من الأميال تقريباً)، واستقر بنا المقام فوراً في مخيمنا بالواحة، وفي ميعاد ملائم تماماً لمشاهدة الشمس وهي تغرب خلف قمم سيناء. وعلاوة على البعوض، الذي كان كثير العدد شديد الإزعاج والمضايقة فقد قمنا بكل تأكيد بعمل ما في وسعنا للاختباء هنا بعيداً عن الأوساط الاجتماعية في الخربة التي من الواضح أنها كانت في العصور القديمة ميناءً بحرياً لعينونة، على الرغم من أنه، كما قال أحمد، لا يوجد إلا القليل أو ربما لا شيء مما يمكن عده آثاراً.

وكانت عينونة فيما يبدو مكاناً ذا أهمية عظيمة حيث إنها تقع، كما هي الآن، في موقع استراتيجي في وحول مضيق ضيق، الذي يشق خلاله الوادي طريقه عبر جبلٍ طويلٍ من الحجر الجيري يحجب جميع طرق الدخول إلى السهل والبحر. وكما ذكرنا من قبل، فإن رأس وادي عينونة يقع في الناحية المتجهة نحو البحر من جبل رَوَا من هضبة حسمى على الرغم من أن ألسنته العلوية تعرف باسم وادي النتيش (أو إنتيش) أو وادي رَوَا، بينما الوادي الحقيقي بالاسم الأخير منفصل تماماً ويصب في وادي عفال على طول الحافة الجنوبية من جبل الزهد. وهذا حسبما اكتشفت من قبل في عام ١٩٥٣م

عندما عبرت وادي عينونة بعد المضيق بحوالي عشرة أميال تقريباً، أي المكان الذي نخيّم فيه حالياً ثم التزمنا وادي رَوَا (وادي الشواحط) مسافةٍ ما حتى دخلنا في وادي عفال. ويقع مسيل الغيل، الذي ينزل من خلال المضيق ليصل إلى مسافة بعيدةٍ في اللسان الرملي الواسع من الوادي على الجهة المواجهة للبحر من الجبل.

وقد قضيت عدة ساعات في الصباح التالي أفحص المعالم المحيطة بنا بالتفصيل. ويوجد في أسفل مخرج المضيق مباشرة، وعلى الجبل المنخفض ورف الضفة اليمنى خرائب الآثار المتهدمة والمبعثرة لمستوطنة كبيرة، والتي يبدو منها مبنى واحد كبير خشن البناء يبدو أنه كان قلعة مصممة لتشرف على مدخل السهل، وكانت باقي المباني، المنتشرة على مساحة كبيرة، شديدة الخشونة في البناء مثل سابقها ولكنها كانت متناثرة بصورة تبعث على اليأس لدرجة أنه كان من المستحيل رؤية كيفية تخطيط القرية أو ترتيب الغرف في منازلها. ويبدو لي أنها كانت مساكن يقطنها العمال وغيرهم من سكان الطبقة الدنيا، لأننا سوف نرى في الوقت المناسب فيما بعد أن عينونة لم تكن فقط نقطة استراتيجية بارزة فحسب ولكنّها أيضاً مركزٌ ذو أهمية اقتصادية. من هذه الآثار تسلقنا بصورة شاقة نسبياً على المنحدر الصخري الوعر حتى قمة الجبل. وهنا كان بحق "المقام السامي" في عينونة، حيث كانت تعيش الطبقات الراقية. ومن الواضح أنهم

كانوا أناساً بلا حسٍ فني، حسب ما يتضح من بقايا مساكنهم الحجرية الفظة، ويحتمل أنهم كانوا يهتمون فقط بالمحافظة على وضع أيديهم على منطقةٍ كان يتم فيها الحصول على الذهب بمجرد غسل التربة. وكانت المستوطنة القديمة تمتد من الحافة الغربية للآثار مسافة ٥٠٠ ياردة على طول القمة المسطحة من الحجر الجيري باتجاه جنوب - شرق حتى جرف المضيق، وباتجاه الشمال - الغربي أيضاً كانت القمة تمتد المسافة نفسها تقريباً، ولكن بلا مبانٍ، على الرغم من وجود بعض أكوام الحجارة في هذه المنطقة والتي قد تكون بقايا أبراج مراقبة. وكان اتساع المستوطنة يبلغ ٢٥٠ ياردة تقريباً، ويبدو أن زاويتها الشمالية - الغربية كانت مشغولة بقصرٍ أو حصن.

فيما يبدو أيضاً أن هناك بعض الآثار على الامتداد الشرقي للجبل بعد المضيق، ولكني لم أرها. ويقع نخيل الخريبة إلى الجنوب - الغربي، بينما على مسافةٍ أبعد كنا نستطيع رؤية بساتين الشرمة إلى الجنوب - الشرقي. والمواد المستخدمة في مباني المستوطنة والقلعة كانت من كل شكلٍ ولون، وتضم كتلاً غير متساوية من الجرانيت والبازلت، بحجم رأس الإنسان، علاوة على كتل الحجر الجيري، وكان من السهل تتبع مخطط بعض الغرف أو المباني.

ولكن لم يكن هناك أي شيء ذو أهمية معمارية، وكانت الكسر الفخارية منتشرة في المكان. وفي الحقيقة كان هناك قليل مما يميز

المستوطنة العلوية عن السفلية، ومن القمة ألقينا نظرة رائعة وأخذنا فكرة طيبة عن المنطقة الواقعة على الجانب الشرقي من الجبل، وكان الوادي يمتد نحو الشمال - الشرقي نحو ٥٠٠ ياردة من المضيق، ثم يتحول باتجاه الشرق حتى نقطةٍ على بُعد ميل تقريباً، ومنها ينثني مختفياً عن الأنظار، على الرغم من أننا لمحناه عدة مرات في الشمال - الشرقي مسافة تمتد حوالي ثلاثة أو أربعة أميال. وتوجد به منطقة شاسعة من النخيل في رُقعٍ متقطعة بامتداداته المرئية.

وعندما نزلنا من القمة بعد دراستنا غير المثمرة نسبياً فقد واصلنا تقدمنا في الوادي عبر المضيق على طول الغدير المتدفق، الذي يتناثر حوله النخيل وتحده حزمٌ كثيفة من أعواد القصب والأثل الذي اضطررنا إلى شق طريقنا خلاله بصعوبة حتى المنطقة الأكثر سهولة من ورائه. هنا أتينا على بعض الآثار على كلا ضفتي القناة على بُعد حوالي ميل عكس اتجاه التيار من المضيق.

وقد سماها أحمد "مغاير الكفار" وهي مبان حجرية شديدة الخشونة من النوع الذي رأيناه سابقاً، وتحتل موقعاً على الضفة اليمنى، طوله ٥٠٠ ياردة تقريباً وعرضه ١٠٠ ياردة، وفوق هذا الموقع مباشرة يوجد حاجز يمثل سداً طبيعياً عبر الوادي، بارتفاع أقدام قليلة فقط، وعند نهايته على الضفة اليسرى توجد بقايا مبنى حجري، ربما كان هذا الحاجز أساسات سد حجري لم يبق منه شيء

وقد بُني ليوظف في عمليات غسل الذهب، التي يحتمل أنها كانت سبب وجود هذه المستوطنة. ومع وضع احتمال تكوّن الطمي في عصور متأخرة، فإن الحاجز ربما يكون قد أدى الغرض منه دون أي مبان فوقية.

ومن الطريف أن صخور البازلت والجرانيت تحتل كل المنطقة نحو الشرق من جبل الحجر الجيري الذي يقوم هو نفسه على قاعدة من الصخور النارية نفسها، ويبلغ عرض الوادي خمسين ياردة بين أجراف طميّة بارتفاع عشرة أقدام عند السد، ولا يوجد أي مبان عكس اتجاه التيار منه على كلا الضفتين. وفي قمة ومنحدرات جبل يرتفع إلى ٣٠٠ قدم على بُعد مسافة من الضفة اليمنى، وعلى المستوى نفسه مع المغاور، يوجد أيضاً عدد من المباني الحجرية من النوع نفسه، والتي لم أزرها، والأكواخ المصنوعة من سعف النخيل قرب المضيق لا تستخدم إلا في موسم جني التمور.

وعند عودتنا إلى الخريبة زرنا مركز الشرطة، حيث تم استضافتنا على الشاي والقهوة قبل أن نتقدم لاستكشاف القرية، التي كان معظم مبانيها من الصخور المرجانية الصلبة، وكان حوالي عشرين أو أكثر من هذه المباني ملاصقاً للشاطئ، وفي القرية وجدنا اللوري، الذي كان مرّ بجوارنا في البدع منذ أربعة أيام، وكان متجهاً نحو الجنوب، في طريق عودته إلى تبوك بحمولة من البنزين للحكومة.

ولا يوجد في المكان إلا القليل مما يشجع على مزيد من التأخير، ومررنا حول الشاطئ الرملي وحول خليج ساحر رائع، وكان الجانب البعيد منه يبرز مسافة طويلة في البحر ليشكل شبه جزيرة الشرمة الواسعة، التي يرويها وادٍ بنفس الاسم وقد وصلناه بعد أن قطعنا ستة أميال من الخريبة.

وقد قضى موسل وقتاً طويلاً في شبه الجزيرة هذه عام ١٩١٠م، واكتشف الكثير من آثار السكنى والزراعة القديمة، والقرية مهجورة الآن، باستثناء الزراعة الموسمية للدُخُن التي يقوم بها البدو في مواسم الأمطار والسيول الجيّدة.

وعلى طول الضفة اليمنى من الدلتا الرملية الواسعة بوادي الشرمة وجدنا غديراً مائياً (غيل) يجرى سدىً في الرمل بعد أن يؤدي غرضه من ري واحة الشرمة على بُعد نصف ميل تقريباً عكس التيار، ولم ننعطف جانباً لنزورها في هذه المرة، ولكن عند زيارتي القادمة لها في إبريل من العام التالي مع عالم الجيولوجيا المصري مصطفى صادق توقفنا هناك لتناول الغداء على مرجٍ أخضر جميل، ينحدر إلى قاع الوادي من واحة كبيرة مزروعة بنخيل كثيف بعضه ذو ارتفاع عظيم. لقد كانت بقعة ساحرة فيها نخيل كثيف في دائرة تمتد حول ثنية القناة، وعندها كانت أمواج الماء من عدة جداول قادمة من العين تنتشر في أوحال وبرك قذرة، كان البدو، ومنهم جزء كبير من

النساء، يسحبون الماء لأغنامهم، أو يملؤون قربهم ليحملوها عائدين إلى خيامهم القريبة. وزعت على النساء والأطفال ما تبقى من غدائنا الوفير مع بعض النقود القليلة، التي قبلوها بشكر جزيل، وقد انضم إلينا على المرج الأخضر خلال الغداء رجلٌ ثرثار نسبياً ذو مظهر جذاب، وكان قد عاد إلى بلده الأصلي بعد أن قضى خدمة طويلة في الشرطة السعودية.

لقد رأى كثيراً من العالم، المقتصر بالطبع على الجزيرة العربية، خلال مدة خدمته، وكان لديه الكثير والكثير مما يقوله لنا عن الناس المهمين الذين قابلهم في حياته، ومنهم لورانس وكما قال بالحرف الواحد "وفي العام الماضي فقط وفي هذا المكان نفسه قابلت فيلبي". ولم يرتبك إلا قليلاً عندما أخبرته من أكون، وإنني لم آت أبداً من قبل إلى واحة الشرمة في حياتي. ربما قد سمع عن تجوالي ورحلاتي العام الماضي في منطقة مدين، ولكني لا أعتقد أنه قد وقعت عيناه عليّ في ذلك الوقت. كما أنني بالتأكيد لا أتذكر أنني رأيته من قبل. لابد أن عينَ الشرمة وواحتها ذات أهمية أثرية عظيمة، والكوم الشاهق من الطين والركام على طول حواف القناة قد يخفي كثيراً من الألغاز عن القوم الذين سكنوها في الماضي.

وكانت البيوت القليلة العادية المبنية من الحجر على السطح تبدو حديثة العهد، ومن المحتمل أنها لم تكن تستخدم لأغراض المعيشة،

إذ لابد من أن الواحة كانت مرتعاً خصباً للملاريا، ومن هنا -على ما أعتقد- كان موسل قد انطلق في رحلته بوادي العَرْنَب وممر السِّيق الضيق الشهير حتى هضبة حسمى.

ويبلغ اتساع دلتا الشرمة التي عبرناها على طريق السيارات الرئيس، ثلاثة أميال تقريباً، وبعدها يقع سهلٌ رملي واسع ومرتفع قليلاً، تصرف مياهه قنواتٌ كثيرة قادمة من التلال المنخفضة البعيدة في المنطقة الداخلية، وكان طول أربع منها خمسة أميال تقريباً وهي نخبر وراطية وكريكرة وروضة العبد بهذا الترتيب من الشمال للجنوب، إضافة لتل زبيل الصغير البارز على الأرض المرتفعة بين الاثنتين والأوليين، وإلى الشرق من ممر السيارات.

وبعد ميل جنوب روضة العبد دخلنا وادي تيرم الكبير وعبرناه، وهو آخر امتداد نحو البحر لوادي سَدْر الذي يرتفع بعد مسافةٍ طويلة عند ممر الخريطة في الهضبة، ويمر درب السيارات على طول واجهة واحة شاسعة من النخيل، بها آبارٌ كثيرة، وتمتد عدة أميال حتى الممر الصخري الضيق، الذي يشق منه الوادي طريقه عبر المرتفعات الساحلية حتى البحر، وعلى شاطئه تقع قرية السورة وبها بعض أشجار النخيل ومركز حرس السواحل عند النقطة التي تلتقي بها دلتا تيرم مع وادي وقدان، وقد عبرنا الوادي الأخير بعد أربعة أميال تقريباً جنوب نخيل تيرم، عند حافة بقعة واسعة من التلال

الصخرية، التي تفصل حوض وادي سَدْر عن حوض وادي المزيهيرة بعد مسافة ميلين من المسير. وقد نزلنا في هذا الوادي لنصل إلى البحر بعد حوالي سبعة أو ثمانية أميال شمال ميناء المويلح البحري الهام. هنا وطأت قدما بيرتون الأرض لأول مرة في بعثته عام ١٨٧٧ بحثاً عن مناجم الذهب في مدين.

ونظراً لأنني كنت أخشى أن نتأخر بسبب كرم ضيافة السلطات الحكومية في المويلح فقد قاومت إغراء البقاء لبعض الوقت في واحة نخيلها العظيمة والتي تنتصب في وسطها قلعة رائعة، على الرغم من أنها خربة متهدمة، كانت قد شُيّدت لحماية الحجاج بناءً على أوامر من السلطان سليم خان، الخليفة العثماني، وقد سحبنا على عجل الماء من مرواها أي بئرها الرئيسة، بجوار طريق السيارات، وأخذنا نسرع في السير دون أن يشغل بالنا شيء سوى الوصول إلى ضباء وبعد حوالي تسعة أميال من السير من المويلح مررنا على ما يسمى بجبل الكبريت.

وتقع ضباء نفسها على الساحل على بُعد تسعة عشر ميلاً تقريباً خلف هذا التل، وقبل وصولنا إلى مقصدنا بميلين مررنا على المصبين الواسعين اللذين يُعرفان باسم الحشّية وضحكان وبهما نخيلٌ وآبارٌ، وعلامات أخرى على استيطان البشر، وكانا المتنزّهين المفضلين لمواطني ضباء.

لقد انقضى الآن ثلاثة أشهر منذ أن خرجنا من الرياض في بعثتنا لاستكشاف مدين، وكانت مهمتنا قد انتهت تقريباً، على الرغم من أنني كنت شديد الوعي والاهتمام بالمهام الأخرى التي تنتظر عودتي -التي طال أمدها- إلى الحضارة، ومع ذلك كنت أستطيع الآن أن أرتاح ليلة في الضيافة الغامرة لمحمد النفيسي وهو مواطن من منفوحة قرب الرياض، الذي كان أميراً على المنطقة الساحلية تحت الإمارة العامة لخالد السديري، حاكم المناطق الشمالية، التي كانت ضباء ميناءها الرئيس.

ولم يكن هناك شيء يميز المدينة على وجه الخصوص، والتي كانت قد تطورت حديثاً بصورة نسبية؛ فهي تقع على أرضٍ مرتفعة على طول شاطئ البحر، وبها سوق واسع ومركز تجاري تتخلله المكاتب البلدية والحكومية، وقد تم إيواؤنا في هذه الليلة ببيت قرب سكن الأمير الخاص في الشارع الرئيس، ومن نافذتي كنت أستطيع أن أنظر نحو الشمال إلى قمم وأوتاد شار الجرانيتية العظيمة، والتي تهيمن على كامل المنطقة حول جبل الكبريت. في تلك الليلة استضافنا الأمير على مأدبة أميرية في بيته، وقد دعا إليها جميع كبار المسؤولين الحكوميين في المنطقة، ومنهم القاضي، عبد الغني مشرّف المدني، وهو رجل علمٍ مستنير ينحدر أصلاً من المدينة، والذي كان شغوفاً بأن يسمع عن رحلاتنا في مدين. لقد قضينا ليلة

سعيدة ونحن نتحدث عن ضباء وأنشطتها التجارية وآمال تطورها الاقتصادي.

وفي العصور القديمة كانت هذه الموانى الشمالية على البحر الأحمر تنتعش من عائدات صادرات الأغنام والفحم إلى السويس، ولكن هذه الحركة قد أوقفتها الحكومة السعودية وهي محقة في ذلك تماماً، وعلى العكس شجعت واردات الأغنام من الصومال ومن دول أخرى لتفي باحتياجات أسواق جدة ومكة. وتبعاً لذلك كانت آمال ضباء تنصبُّ على مشروع الطريق المباشر إلى تبوك مروراً بممر الخريطة لتفادي المصاريف الباهظة للنقل بالسيارات اللوري بين هاتين المدينتين بالطريق الطويل عبر مدين.

ويتكون الجزء الأعظم من الحركة المرورية من نقل البنزين والزيوت، والتي كان إسماعيل البديري، من إحدى الأسر في ينبع، طرفاً مشاركاً فيها، وكانت سيارات الحجاج القادمة من الأردن تضطر الآن، وبموجب الشروط الحالية، أن تحمل كافة احتياجاتها من الوقود وزيت التشحيم من معان حتى المدينة، وعند وصولها للحدود السعودية في ذات الحاج كانت تضطر إلى دفع الرسوم الجمركية السعودية كاملة عن كل تلك الحمولة. إنهم سيكونون سعداء بشراء احتياجاتهم داخل المناطق السعودية، إذا كان بالإمكان تنفيذ ذلك على أساس اقتصادي، ولكن النقل الطويل

يجعل الثمن باهظاً ليس في مقدور أحد، ولذلك حرم التجار السعوديون من تجارة رابحة. والسبب نفسه ينطبق على أنواع أخرى من البضائع، التي يمكن استيرادها رخيصة من معان بدلاً من نقلها من ضباء إلى تبوك، ومع ذلك لم يبق إلا ميل واحد من هندسة الطرق في ممر الخريطة الذي يجب تنفيذه حتى يضيف شيئاً كثيراً إلى رخاء ضباء وتبوك، ولكن، كما يعلم الجميع، هذا المبلغ القليل من المال المطلوب للمشروع يُخصص لأغراض أقل أهمية، وكان السكرتير الرئيس والمستشار المالي للأمير رجلاً يُدعى عبدالدايم وكان جده الأكبر رئيس المسؤولين في المويلح عندما نزل فيها بيرتون عام ١٨٧٧م. وخلال الصباح التالي قمت بجولة من الزيارات الودية للقاضي ورؤساء الإدارات الحكومية المختلفة وكبار التجار ومحلات ودكاكين متنوعة في السوق قبل أن أتناول الغداء مع الأمير ومن ثم أودعه.

وقد اضطررنا للتوقف عند واحة صغيرة في بستان من أشجار النبق على بُعد حوالي ٥٠٠ ياردة في وادي ضباء من حافة البحر، لكي نسحب الماء من بئر مروى وهي مبطنة تبطيناً رائعاً بالحجارة وذات فوهة واسعة وماء عذب غزير على عمق ست قامات، وكان هناك بئر أخرى قريبة هي بير أبو شعلان تستخدم لري بستان صغير من نخيل متناثر تضم بينها قليلاً من البيوت أو الأكواخ الحجرية. وكان طريقنا الآن يمتد تقريباً على طول البحر، مع بعض الانحرافات

لتفادي الأرض الوعرة، وعبر سلسلة من الأودية المتقاطعة، التي تنشأ من الأرض المرتفعة نحو الشرق، أو من منابع أشد بُعداً، وكان أهم واد من هذه الأودية يسمى شعيب المشاش على بُعد ثلاثة عشر ميلاً تقريباً من ضباء حيث كنا بجوار جزيرة النَّعْمَان التي تبعد قليلاً عن الساحل وتعد الآن معلماً أرضياً بارزاً لجميع الطائرات السعودية المسافرة بين جدة والقاهرة، ومن هنا تدخل الطائرات في البحر عرضاً حتى رأس محمد في الطرف الجنوبي من شبه جزيرة سيناء، وبالعكس.

إن جميع هذه الأودية الضحلة نسبياً تشق طريقها عبر أراض مرتفعة شبه مستوية وواسعة من الحصباء، يتراوح ارتفاعها بين ١٠٠ إلى ٣٠٠ قدم، وتمتد حتى البحر من مسافةٍ ما نحو الشرق، ولا يمكن عدّ أي منها خط تصريف رئيس. وكان أولها في جنوب ضباء، وادي دامة الواسع، بعد وادي المشاش بسبعة أميال، والذي رأيناه سابقاً حيث يرتفع في منطقة حرّة الرَّحَا البركانية القريبة من روافة، ويبلغ اتساع الوادي في هذه النقطة أكثر من ميلين، وفي جزء من قناته توجد غابة حقيقية من أشجار الغضا وشجيرات عادية أخرى في بقعة رملية متحركة والتي كان سيرنا فيها صعباً، وينزل الطريق في الوادي مائلاً ليتفادى جرف الحصباء شديد الانحدار على ضفته اليمنى. وبعد الوادي توجد بقعة واسعة ووعرة من أحواض رملية تسمى الشبيرم ومنها مررنا عبر وادي المَرّ المنبسط ذي الحصباء

ودخلنا في وادي الأزلم وهو قناة رئيسة أخرى تنحدر من المنطقة المجاورة لشَغَب والهضبة من بعده. وفي دقائق قليلة كنا في الشمال، وعندها فقط وجدنا بوابة قلعة الأزلم العظيمة حيث توقفنا فترة قصيرة لفحص هذا المبنى، بعد أن قطعنا بالضبط ثلاثين ميلاً من ضباء. تنتصب القلعة على حافة قناة الأزلم، التي تجري حتى البحر عبر جبل صخري على بُعد أميال قليلة نحو الغرب، وهي عبارة عن مربع تقريباً مساحته ستٌ وثلاثون ياردة على اتجاه جهات البوصلة الأصلية الأربع. وبها برج مثمن الأضلاع ناتئ في الأركان الأربعة وكل ضلعين من الأضلاع الثمانية في الأركان مُعشّقان في الجدران الرئيسة، بينما يبلغ النتوء الخارجي في كل ركن سبع ياردات تقريباً. وكانت النقوش العربية على الجدار الشمالي، التي تبين تاريخ تشييدها، قد دمرت لدرجة يستحيل معها قراءة النص.

ولم أستطع أن أخرج بمعنى واضح من النسخة التي حاولت استنساخها في ظروف صعبة، ولكن أعتقد أن القلعة شُيدّت لفائدة الحجاج ويمكن نسبتها إلى عهد السلطان سليم[1]. إن هذا المبنى،

(١) الصحيح أن بناءها كان في عهد السلطان المملوكي محمد بن قلاوون، ثم أعيد بناؤها في عصر السلطان المملوكي قانصوه الغوري سنة ٩١٦هـ. وما استصعب على المؤلف قراءته من النص المنقوش على القلعة فهو: حضر في هذا المكان الأمير الأشرف/ الأجل الأمير خشقدم الخازن ل/ معمار السلطان سنة سطعشر وتسعماية.
وعن هذه القلعة انظر: علي غبان: الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة، الكتاب الثاني، ص٢٤١-٢٤٣.

على الرغم من أنه الآن في حالة سيئة جداً من عدم الحفظ، وبالطبع لم يعد مستخدماً، يُعد مفخرة للرجال الذين صمموه ونفذوه؛ فالبناء كله استخدمت فيه حجارة مشذبة تشذيباً رائعاً، لقد سقطت قطع كثيرة من المبنى، أو تم خلعها منه لاستخدامها في أماكن أخرى، ولكن رواق المدخل عند البوابة لا يزال يحتفظ بشيء من رونقه وروعته الأصلية، وفيه قوس شبه مستدق فوق البوابة وصالة رحبة مقببة محمولة على أقواس شبه مثلثة، وهذا الرواق يؤدي إلى ساحة أو فناء فيه بئر كبيرة، يبدو من الواضح أنها لم تعد مستخدمة، في حين كانت ثلاثة من جوانبه مجهزة بغرف أسطوانية الشكل يحتمل أنها كانت مقراً لأمير الحج وموظفيه وقواته. وتوجد بئر خارج القلعة يأخذ منها البدو ماءً قليل الملوحة لسقيا دوابهم، وقد تم تدعيم فوهة البئر بقطع أحجار مأخوذة من المبنى الرئيس.

وفي حين كانت التلال التي تغطي الضفة اليمنى لوادي الأزلم من المضيق الذي يدخله قرب واحة شغب الصغيرة قد بدأت تتلاشى مقابل القلعة، إلا أن تلك التلال الموجودة على الضفة اليسرى تمتد حتى البحر بكتلة صلبة من الجبال الصخرية، والتي من خلالها نضطر الآن إلى شق طريقنا، من وهد إلى وهد على مدى الخمسة والثلاثين ميلاً القادمة.

ويصعد طريق السيارات من القلعة على قناتي المريبد والمقوامة إلى أن يصل إلى ممر متعرج موازٍ للبحر على الرغم من أنه بعد مسافة منه،

وبعد مرورنا من وهد إلى آخر وصلنا إلى وادي دخان وهو أحد خطوط التصريف الرئيسة في هذه المنطقة الجبلية، التي تمتد حتى البحر على بُعد ميلين من النقطة التي دخلناه عندها، وبعدما صعدنا درب دخان وقطعنا ميلين سرنا في أحد روافده -يسمى بُقير سماوة- ميلين آخرين لنصل إلى حافة منطقة مفتوحة نسبياً على هضبة عالية تنحدر برفق نحو خط وادي مرّ على يميننا والذي يمتد حتى البحر.

وأدركنا الغروب في هذه المنطقة، المغطاة بالكامل تقريباً بالشجيرات والأشجار الشوكية الصغيرة في المنخفضات الرملية الكثيرة حيث قررنا أن نخيّم في شعيب نبقة.

ونظراً لانطلاقنا متأخرين وتوقفنا الطويل نسبياً عند قلعة الأزلم، فلم نتقدم سوى ساعة واحدة تقريباً من السير، وخلالها قطعنا حوالي عشرين ميلاً. وكنا الآن على بُعد مسافة قريبة من الوجه وألقينا عصا الترحال في هذا المساء الجميل مع العشاء الشهي، وبعده بقيت ساهراً لفترة من الزمن، أنجز فيها ملاحظاتي عن الرحلة، وأجمع الحشرات التي جذبها مصباحي، ثم انتهيت بحل الكلمات المتقاطعة. لقد كان مساءً رائعاً معتدلاً حيث كانت درجة الحرارة في الستينيات، والسماء صافية بلا رياح، بينما الرمل الناعم وتناثر الأشجار والشجيرات حولنا جعلا الموقع نموذجياً لمخيم صحراوي. وكنت نائماً نوم المطمئن عندما شنت الطبيعة، في منتصف الليل تقريباً، هجوماً مفاجئاً علينا بعاصفة عنيفة هوجاء مباغتة، هزت

الرمل هزاً عنيفاً ورفعته في سحابة هبت علينا مثل جيش من الشياطين، وخطفت كل شيء خفيف في الهواء، ودفنت كل الأشياء بما فيها نحن أيضاً، تحت طبقة من عدة بوصات من الرمل. وفي حلكة الظلام لم يكن هناك شيء يمكن عمله على الإطلاق إلا تحمل لحظات البؤس هذه ما دامت مستمرة، ثم ابتسم لنا الصباح كما لو لم يكن له أي علاقة بما فعله الليل بنا، وبدأت أحفر الرمل لاستخراج ممتلكاتي من قبرها، مقياس الحرارة (ثرمومتر)، والبارومتر المعدني، وزجاجات السم، والأوراق والكتب، وغيرها.

وقد اختفت خريطة موسل لشمال غرب الجزيرة العربية مع بعض الأوراق الأخرى التي كنت تركتها بجوار فراشي. وكنت أعزي نفسي بفكرة أنني قد انتهيت من الاستفادة من الخريطة في كل المنطقة التي تغطيها وعندها -يا للعجب- رأيت ورقة ما معلقة في شجيرة من شجيرات الشوك غير بعيدة عنا وتلك كانت هي خريطة موسل. وعلى حسب ما أذكر فإنني لم أفقد شيئاً ذا بال، واستأنفنا رحلتنا، ليس بأفضل مما قاسيناه في مغامرتنا مع العاصفة الرملية.

واصلنا السير خمسة أميال، وبعدما قطعنا منطقة وعرة ولكنها لا تزال مفتوحة، عبر أو على طول منحدرات الأبيض والطعف وصلنا إلى شريان رئيس آخر من شرايين تهامة وهو وادي ذلبة الذي ينحدر بأسماء مختلفة من سلسلة الجبال خلف البدع (ولا يصح الخلط بينها

وبين البدع في مدين). وامتدادات الوادي السفلى مغطاة بكثافة بشجيرات الطرفاء وشجيرات أخرى، ويدخل البحر بين رأسين من الأرض دقيقين بعيدين تمام البعد عن بعضهما، على مسافة ميل تقريباً على اليمين من طريقنا. وبعد مسير تسعة أميال عبر منطقة صخرية وعرة لا يمكن وصفها، وعبر خطوط تصريف كثيرة، وصلنا إلى ثاني واد كبير هو وادي عنتر الذي يعد محطة معتادة أخرى على طريق الحج القديم، ولا يوجد بها قلعة، ولكن الأتراك قد شيدوا خزاناً رائعاً ببناء أنيق لاستقبال الماء خلال موسم الحج من بئرين في القناة، وقد تم بناء فوهة دائرية واسعة بالحجارة في كل منهما حتى مستوى المياه فيها الذي يبلغ ثلاث قامات.

وتبلغ مقاسات بركة عنتر ٤٥ × ٤٥ قدماً من الداخل كما يصل سمك الجدران قدمين ونصف القدم، وارتفاعها ٢٠ قدماً تقريباً، وبهذا الخزان ستة عشر مدماكاً من البناء، والخزان الثاني متهدم بصورة سيئة ويبلغ نفس حجم الخزان الأول ويجاوره من جهة عكس التيار.

ومن الواضح أنه كان يستقبل مياه السيول ويصفيها من خلال بوابات عالية ويصبها في خزان ماء الشرب الرئيس. والخزانان والآبار مشيّدة بطوب من الحجر الجيري الأبيض (الكاولين) أبعاده ١٢ × ٥ بوصات، ولكن أعالي الخزانين مغطاة بألواح طويلة من الحجر الرملي أبعادها ٣٦ × ١٢ × ٩ بوصات، وتوجد في أحد الآبار شجيرة مزهرة كبيرة من شجيرات الشفالة نامية في شق

أو صدع في البناء، وقد ملأت تقريباً فوهة البئر الدائرية كلها، ومنها طار زوج من البلابل عندما اقتربت لفحص البئر.

وتبلغ المسافة بين بركة عنتر والوجه ثلاثين ميلاً فقط، وكنا الآن قد خرجنا من المنطقة الجبلية إلى سهل واسع ينحدر باستمرار حتى البحر على بُعد عدة أميال ولا نراه بعدُ، من سلسلة جبال على بُعد نصف ميل تقريباً على يسارنا، ومنها تتدفق شعابٌ كثيرة عبر مسارنا.

وكان جبل برام الذي يمثل جزءاً من الضفة اليسرى لوادي عنتر، يطرحُ غطاءً من كتلة صخرية مختلطة من الكاولين حتى حافة مسارنا تقريباً ويستمر نفس التركيب على طول الجبل التالي الذي يُدعى النخيرة ويستمر امتداده مسافة أطول إلى الداخل بالكتل الجرانيتية الضخمة تحت اسم جبل لبن وهو المعلم الأرضي الرئيس في منطقة الوجه. هذه هي كل منطقة بلي التي كان شيخها الرئيس في ذلك الوقت (ولا يزال حتى الآن بلا ريب) الشيخ إبراهيم بن سليمان بن رفادة الذي كان أبوه (سليمان) قد قتل في التلال المنخفضة قرب جبل شار أثناء تمرده الفاشل ضد ابن سعود في أوائل الثلاثينيات من هذا القرن[1]. إن جبل لبن الذي يتكون من ثلاث كتل رائعة من

(١) الصحيح أن الذي تمرد على الملك عبدالعزيز هو حامد بن سالم بن رفادة وليس سليمان والد إبراهيم اللذين كانا من أشدّ المعارضين لثورة حامد بن رفادة.

الجرانيت الأحمر، هو المصدر الرئيس لمعظم خطوط التصريف العابرة لسهل الوجه باستثناء إقليم بلي، ويسكنه بصورة رئيسة مهاجرون من الحويطات من الشمال الذين ينتمون إلى قسم سطوح، وقد ذكرت سابقاً موضوع إمكانية عدّ وادي عنتر من وجهة النظر المائية (الهيدرولوجية) كحد جنوبي لأرض مدين على الرغم من أن المدينيين قد انتشروا حتى الوجه ووادي الحمض من ورائها، مثلما فعل الأنباط بالتأكيد. إن العوامل السياسية والاقتصادية تفسر بصورة كافية هذا التوسع والانتشار، لأن جزءاً كبيراً من مناجم الذهب بمدين توجد إلى الجنوب من الحدود المائية. كما إن وادي عنتر نفسه لم يُكتشف حتى منبعه الذي لا يزال مجهولاً، ولكن من المحتمل أنه يقع في المنطقة الصخرية حول لبن لأن تصريف مياه المنطقة بعده وحتى الهضبة، يتم بروافد مختلفة تصب في وادي ثُلْبة.

وكان هناك ما لا يقل عن ستة عشر خطاً من خطوط التصريف العابرة لمسارنا بين وادي عنتر ورأس شعيب ملسة الذي يمتد على طول الجهة الداخلية من هضبة الوجه، ليلتقي بوادي سبيل عند النقطة التي يدخل فيها ميناء الوجه. وكافة الخطوط الأخرى تشق طريقها بصورة منفصلة عن بعضها البعض، أو بتشكيلات مختلفة، حتى تصل إلى البحر شمال الهضبة. وبعد حوالي ثلاثة أميال في

ملسة (والتي نطقها أدلاّء مختلفون منسه أو حتى منفه) ينعطف الطريق إلى المدينة العليا بصورة مفاجئة وحادة ليصعد على جرف حاد الانحدار، ارتفاعه ١٠٠ قدم تقريباً، ليصل إلى الهضبة على بُعد ميل تقريباً شمال قلعة رائعة حقاً من عصر الأتراك[١] (شُيدت خلال الحرب العالمية الأولى)، والتي تحمل الاسم الغريب قلعة بلاش (أي قلعة العدم) وذلك يعود إلى حقيقة أن الغرض منها كان الدفاع عن الوجه ضد لورانس والأمير فيصل، ولم يشغلها أحدٌ أبداً (كما لم تستخدم قط منذ ذلك الحين) بسبب سقوط المدينة مبكراً. وبعد المسير مسافة ميل عبر الهضبة الجرداء من قمة الجبل تقع مدينة الوجه العليا، في زاوية تشكّلت من جرف بحري عند انحنائه للداخل على طول حافة المدينة السفلى (التجارية) والميناء.

ولم يكن النهار قد انتصف بعدُ عندما وصلنا أمام قصر الأمير، لم يكن هناك من طريقة لرفض دعوته (أو أمره) بالبقاء كضيوف عنده في الليل. لقد كان ناصر السديري عضواً آخر من أحد أكثر العائلات العامة تميزاً في السعودية، والتي كان من بين صفوفها في ذلك الوقت أكثر من اثني عشر أميراً على المناطق.

---

(١) يرجح الدكتور علي غبان بناءً على روايات محلية أن بناء القلعة كان زمن الأشراف، ويضيف أن هذه القلعة أزيلت تماماً، إلاّ أن مكانها لا يزال معروفاً. انظر: علي غبان: الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة، الكتاب الثاني، ص٢٨٤. (المراجع).

وتبلغ المسافة الرسمية من ضباء حتى الوجه ١٥٦ كيلومتراً، أي حوالي ٩٧ ميلاً، مما يجعل المسافة تبلغ ١٩٦ ميلاً من البدع. والتقدير الرسمي للمسافة من ضباء إلى تبوك بطريق السيارات العادي الذي استخدمناه في الرحلة يبلغ ٣٧٦ كيلومتراً، أي ٢٣٥ ميلاً، بينما الرحلة بالإبل بين هاتين النقطتين تستغرق خمسة أيام، أي ١٢٥ ميلاً تقريباً، عن طريق الخريطة.

بعد العاصفة في الليلة السابقة، كان النهار بارداً وغائماً، وقد قضيت فترة ما بعد الظهر في جولة طويلة وكئيبة نسبياً في زيارات لرؤساء الإدارات الحكومية، الذين كانوا قد دُعُوا للاجتماع بنا على العشاء في بيت الأمير عند الساعة الرابعة عصراً. وقد ناقشنا، ونحن نرشف أكواباً لا حصر لها من القهوة المُرّة والشاي الحلو، أحوال وإمكانيات الوجه، التي كانت في العصور السابقة مَصْدراً رئيساً للأغنام المصدّرة إلى السويس، سواء باستخدام السنابك التي كانت تعمل في البحر الأحمر أو بسفن البريد البخارية الخديوية.

وكانت هذه الأخيرة لا تستطيع أن تقف على طول جانب أرصفة الميناء ولكنها ترسو في المُكلا قرب الشاطئ لتحميل حمولتها الحيّة من صنادل باستخدام قيود الربط الحديدية في السفينة، التي ترفع الأغنام عالياً بطريقة فظة، ستة منها في كل مرة وكلها مربوطة معاً من رجل واحدة خلفية. وقد توقفت هذه الحركة التجارية الآن،

ليس لأسباب إنسانية ولكن للمحافظة على مورد اللحوم بالبلد، وقد تم تطبيق الحظر نفسه على صادرات أخرى قديمة، وهي السمن أو الزبدة الصافية، والتي كان عليها ذات يوم طلبٌ شديد في السوق المصرية. وصادرات الوجه الوحيدة الآن هي الفحم النباتي، الذي يتم شحنه في السنابك في أكياس سعة قنطار، والتي تباع بسعر عال يصل إلى ١٢٥ قرشاً مصرياً في السويس. وكان تعداد سكان الوجه يقدر بحوالي ١٥٠٠ نسمة، مقابل ٢٠٠٠ نسمة في ضباء، ومن المؤكد أن الوجه الآن أقل ازدهاراً ورخاءً عما كانت عليه في أيام ما قبل الحرب عندما كانت ميناءً تزوره بانتظام السفن البخارية الخديوية وغيرها. وتوجد بيوت كثيرة في المدينة السفلى، والبعض في العليا، والتي يعود تاريخها إلى أيام سحيقة نسبياً من عصر الاحتلال المصري لشمال الحجاز، وهذه البيوت ذات جودة أفضل بصورة عامة من المباني الحديثة.

والقلعة الكبرى المطلة على المدينة السفلى من مقدمة الجرف المنحنى، تعد حالة ذات صلة وثيقة بموضوعنا، على الرغم من أنني لم أر داخلها الذي كانت تشغله الحامية المحلية والشرطة. وفي المدينة السفلى توجد السوق الرئيسة، وهو حدث مثير حقاً، كما توجد مكاتب الجمارك والعوائد، ناهيك عن مباني الميناء، والمحاكم، وهلم جرا.

وكان إمداد المياه للمدينة في الأزمان الغابرة يعتمد جزئياً على عدد من الأحواض أو الصهاريج المصممة لتجميع مياه الأمطار في المنطقة والاحتفاظ بها، وجزئياً على عملية أكثر تكلفة تنطوي على إرسال الإبل (والشاحنات في الفترة الأخيرة) إلى آبار على بُعد ستة أميال تقريباً في وادي السبيل الذي ينحدر من المرتفعات المجاورة حتى الميناء.

وقرب الآبار تنتصب قلعة "الصليبيون" الشهيرة، التي تُسمى قلعة زريق والتي زرتها بصحبة الدكتور / دي. جي. هوجارث في يناير ١٩١٨م ونحن في طريقنا من جدة إلى العقبة والسويس، بعد مناقشتنا للشؤون السياسية العربية مع الملك حسين، ملك الحجاز.

وبينما تنفتح مدينة الوجه العليا على مصراعيها على الهضبة الشاسعة الممتدة إلى الشرق منها، بدون أسوار، حيث تتوزع المدينة في غير نظام على طول قمة جرفها، فإن المدينة السفلى مكتظة نسبياً في المساحة الضيقة بين سفح الجرف والميناء، ويحميها من الغزو على الجهة الشرقية سور، متهدم الآن نسبياً، ويوجد به ما يسمى باب البحر الذي يوجد بداخله "مناخ" واسع وهو مكان توقف قوافل الإبل في الماضي. (وقد حل محلها الآن السيارات التي من أجل خدمتها يشغل المكان بصورة رئيسة حالياً بائعو الوقود، وقطع الغيار، والمستلزمات الأخرى، وقد تم إبعاد براميل البنزين المخصصة

لإعادة تزويد خزانات السيارات بالوقود إلى مكانٍ خارج السور كإجراء احتياطي ضد الحرائق).

وكان التاجر الرئيس في المدينة يُدعى مصطفى البديري الذي قابلنا أخاه إسماعيل مؤخراً في ضباء، وهو في هذا الوقت تقريباً، أصبح وكيلاً محلياً لشركتي فيما يختص بتخزين وقود الطائرات بغرض تزويد طائرات الخطوط الجوية العربية السعودية بالوقود في رحلتها من جدة للقاهرة.

والدائرة التي تحدد أرض المهبط في الوجه والتي تم إعدادها في الأيام البعيدة خلال الحرب العالمية الأولى، لا تزال علامة أرضية واضحة من الجو، على هضبة قلعة بلاش ولكن لا يمكن لطائرة من العصر الحديث تحترم نفسها أن تستخدمه بدون المخاطرة بحدوث كارثة فادحة، وقد تم استبداله بشريط مهبط واسع على الساحل إلى الجنوب قليلاً من الجانب البعيد للميناء.

وهنا لا توجد مرافق عادية من مرافق المطارات المعهودة والآلاف من براميل وقود الطائرات مرصوصة في صفوف متراصة، ومعرضة لعوامل الطقس، إلى أن تتم مناولتها يدوياً وصبها في خزانات الطائرات عند الطلب، ولا يحدث ذلك إلا عندما ترد إشارة عن عزم طائرة بالهبوط للتزود بالوقود، وهذا لا يحدث عموماً إلا في

موسم الحج فيخرج المسؤولون من موظفي المطار، ومندوبو البديري، والمشاهدون من المدينة، في مأموريات قصيرة ليؤدوا مهامهم المختلفة وليتمتعوا بتغيير غير عادي يكسر رتابة الحياة بالوجه. وكان الشيء نفسه يحدث في الأيام الخالية عندما كان مواطنو المدينة يتمتعون بزيارة السفن البخارية الخديوية خلال الساعات القليلة التي كانت تقضيها في الميناء، إما لأداء أعمال تجارية، أو لمقابلة أصدقاء أو وداعهم، أو أحياناً لأخذ عينات من ترتيبات التموين في العالم الحديث. وقد هبطت مرة واحدة فقط في مطار الوجه في طريق عودتي إلى جدة من القاهرة، وما زلت أتذكر تشبيهي لهذا المطار مع مطار كان الفرنسي مع تغيير ما يلزم.

والأكثر إثارة من بين موظفي الوجه الرسميين كان -بلا شك- القاضي، الشيخ مصطفى السناني، وهو رجل علم من المنطقة استقرت عائلته في الوجه منذ عدة أجيال، كمهاجرين من مصر خلال أيام الحكم المصري لهذه المناطق، وكان عمه إسماعيل بن محمد السناني، في هذا الوقت حاكماً مخلياً، وهو -أيضاً- رجل ذو سحر وتحضر عظيم، والذي فعل -بلا ريب- أقصى ما في وسعه من أجل مدينته في ظل ظروف هذا الزمن المثبطة نسبياً.

لقد كان الشخصية الرائدة في ضمان تأمين مساعدة من الحكومة لتركيب مكثف لمياه البحر قبل زيارتنا بحوالي ثلاثة أعوام لتعزيز

وتقويم إمداد المياه المتذبذب للناس. وحقيقة إن هذا الجهاز كان عاطلاً عن العمل بسبب عيوب ميكانيكية مختلفة ليس مسؤولاً عنها، ولقد كان أيضاً مشرفاً على تركيب مضخة ميكانيكية من طراز قديم، التي كانت أفضل ما استطاع أن يعتصره من الحكومة، في بئر قلعة زريق، ومرة أخرى لم يكن من أخطائه أن هذه الأداة غريبة الشكل مخزونة الآن في أحد الغرف المتهدمة من القلعة نفسها، لأنها فشلت في استخراج المياه من البئر. وربما يتقاسم أيضاً مع الأمير شرف التغلب على هذه الصعوبات بتوفير عدد من شاحنات الصهاريج "الوايت" بسعة ٥٠٠٠ جالون ليوفر على الإبل عناء حمل المياه حتى باب البحر لتوزيعها على المواطنين بسعر رمزي.

وكان القاضي مصطفى رجلاً ذا قدر عظيم من الاستنارة، ويتمتع بمعرفة عملية طيبة للإشارات القرآنية إلى الآثار القديمة مع التركيز على وجه الخصوص على الإشارات إلى مدين وقوم ثمود. ومن المؤكد أنه لا يتصف بالتحيّز، مثلما يفعل كبار الشيوخ في الرياض، ضد دراسة أي شيء قبل الإسلام[1]، حتى إنه كان من جامعي الآثار من نوع ما، على الرغم من أن ما جمعه قد يكون متأثراً بأفكاره المبالغ فيها عن القيمة المالية للأشياء الأثرية.

وقد قدّم لنا قطعتين من العملات الذهبية، لكي نفحصهما، زاعماً أنهما قد وجدا على التوالي في البدع ومدائن صالح، واقترح

(١) لعل المؤلف فهم من محافظة الشيوخ في الرياض على الهوية الإسلامية وعدم الخوض فيما قبل الإسلام على أنه تحيز وهذا غير صحيح.

ضرورة أخذهما معي لتحديد نوعهما، وقد رفضت هذه الثقة، ولكني اغتنمت إذنه بأخذ رسومات أو طبعات لهذه الآثار الثمينة ووعدته بالإفادة في الوقت المناسب عما تكون وما قيمتها النقدية. واستطعت أن أفي بهذا الوعد من خلال مساعدة الدكتور جون واكر من المتحف البريطاني، الذي أفادني في الوقت الملائم أن هذه العملات لا تساوي أكثر من قيمة معدنها (الذهبي). وقال إنها عملات إيطالية معروفة قديماً (١٥٧٠ - ١٥٧٧م) من نوع دوق البندقية (Venetian Doge) وأليوسس موسينجو (Aloysius Moceni-go) وقد كتب عليها الكلمات: S(anctus) M (arcus) Vent (us) والكلمة دو (Dux)، بينما الصورة القائمة للقديس مارك تمثله وهو يقدم الراية المباركة لدوج (Doge) الراكع أمامه. ربما يكون صديقي قد خاب أمله بالمعلومات التي كنت قادراً على تزويده بها، ولكن يبدو أن العملات جاءت للجزيرة العربية في أيدي بعض الحجاج في عصور عتيقة نسبياً.

إن مدينة البندقية مشهورة لدى العرب من خلال التجارة القديمة في البنادق بين البلدين. وكان ابن مصطفى، عبد الله، في هذا الوقت يعمل مسؤولاً عن العوائد في ضباء.

عند وصولنا للوجه تمتعت برفاهية حمامٍ دافئ وتغيير كامل ملابسي بعد مضي أيام لا أعلم عددها منذ آخر مرة انغمست في مثل

هذا الترف، وغمرني شعور طيب بأنني نظيف ومهندم بصورة جيدة ومعقولة للمناسبات الاجتماعية والمقابلات. لقد خططنا أن ننطلق مبكراً في الصباح التالي، ولكن عندما ذهبت إلى صناديقي المقفلة لاستخراج أموال كافية لمكافأة خدم وموظفي الأمير على الاستضافة السخية عند الأمير، اكتشفت أن مفاتيحي مفقودة!!

والتفسير الوحيد الذي طرأ على ذهني أنها لا بد قد دفنت تحت الرمل عند هبوب العاصفة الرملية في نبقة وإلى هناك أرسلت زعلاً والسيد في الشاحنة للبحث بدقة في الموضع الذي نمت فيه واسترجاع مفاتيحي، وكان عليهما أن يقطعا حوالي خمسة وأربعين ميلاً ذهاباً، ومثلها في العودة، واستفدت الاستفادة القصوى من هذا التأخير الإجباري في القيام ببعض الزيارات الإضافية. وفي الحقيقة لم أكن نادماً على هذا الحادث المؤسف لأنني كنت أعاني من قروح في يداي وقدماي خلال السفر الوعر في الأسابيع القليلة الماضية، وكانت الوجه تتمتع بميزة وجود عيادة صغيرة، وإلى هناك مشيت على طول الجرف لزيارة الطبيب تحت الاختبار المسؤول عنها، وكان شاباً من الوجه يُدعى محمد قنديل والذي كان هنا منذ حوالي عام بعد التدريب في مدرسة الطب بمكة، ولم يكن طبيباً مؤهلاً بأي حال، فقد كانت وظيفته الرسمية صيدلي، وتعامل معي بكفاءة ومهارة تامة، وتركته وجروحي المختلفة ملفوفة بالأربطة.

وفي غضون ذلك تأخرت الشاحنة وبدأت أتساءل عن إمكانية أن ننطلق في وضح النهار. وقد اتفق على وجوب تناول العشاء مع الأمير في الميعاد المعتاد (الرابعة عصراً)، ونبدأ رحلتنا فوراً بعد ذلك إذا كانت الشاحنة قد عادت في ذلك الوقت. وظننت أنه من المفيد أن نقوم بتعبئة كل شيء انتظاراً لوصول السيارة، وعندما كنت أنزل ملابسي المتسخة من المشجب وجدت مفاتيحي الضائعة في جيب ملابسي التي غيرّتها. جعجعة ولا طحين! ولكني كنت قضيت النهار بسرور كاف ولم يكن هناك شخص أشد فرحاً بموضوع هذه المهزلة المضحكة من زعل والسيد عندما عادا بوجهين كئيبين ليُبلّغاني عن نتائج بحثهما السلبية. والآن كان الوقت قد تأخر، ولكني قررت، بموافقة الأمير، أن ننطلق في رحلتنا، وهكذا بدأنا عند الساعة الخامسة والنصف عصراً.

وفي خلال خمسة دقائق كنا على قمة الجرف، بعد أن رفضنا بلباقة وأدب قدر الإمكان دعوة من مركز مراقبة صغير للشرطة على الطريق للبقاء معهم وتناول فنجان قهوة. بعد ذلك بدقيقتين كنا نسرع نازلين في آخر مرحلة من رحلتنا في وادي ملسة حتى وصلنا وعبرنا الدلتا الواسعة لوادي سُبيّل، وعندما تقدمنا في رافد واسع أتينا إلى حافة بحيرة مالحة كبيرة، تعرف باسم الملاحة التي تزود الوجه والمناطق المجاورة لها بالملح، وعلى شاطئها الداخلي في هذه

النقطة ينتصب نتوء واضح من الحجر الجيري ذي قمة مسطحة يُسمى ديرة الملاحة وعنده يتشعب الطريق، فالطريق الجنوبي الرئيس يسير في امتداد مستقيم، موازٍ بشكل أو بآخر للساحل، ولكننا أخذنا الطريق الأيسر، الذي يمتد جنوب - شرق إلى قرية منجم الذهب الكبرى التي تدعى أم القرايا[1] حيث كان علينا أن نقضي الليل هناك. كان تشعب الطريق يمتد فقط لميلين من بوابة البحر في الوجه، وأسرعنا السير حيث كانت الشمس تقترب من المغيب وخلال الغسق سرنا عبر الأودية الضحلة الواسعة المسماة أم تنضب وأم سدرة وبعدها كان سهل التصريف الواسع لوادي السُرّة -وفيه قنوات فيضية عديدة- يفصل بيننا وبين جبال أم هَشيم. وخلال هذه الجبال صعدنا على طول رافد السرة الضيق، واستغرقنا خمس عشرة دقيقة حتى وصلنا إلى رأسه، ومنها نزلنا في وادي الخور ونصبنا خيامنا على أطراف عاصمة الذهب أم القرايا.

وفي الصباح التالي استيقظت مبكراً لأقوم بفحص خاطف لمنطقة الآثار الواسعة التي كانت قد استكشفت بالكامل، بنتائج سلبية تماماً، منذ سنوات من قبل كي. إس. توتشل.

واكتفيت بالنواحي الجغرافية للمنطقة، والتي تمتعنا بإلقاء نظرة طيبة عليها من قمة ما بدا أنه كان منجم الذهب الرئيس عند

(١) وقد رسمها المؤلف: أم القُرَيَّات.

القدماء. وكان جبل لبن يمتد الآن على الناحية الشمالية - الغربية لنا، بينما في الاتجاه المقابل (جنوب - شرق) تقع جبال رال الجرانيتية الضخمة، وهي المقر الرئيس لشيخ بلي ابن رفادة، الذي أعاق حتى الآن أي استكشاف لجباله. إن رؤوس الجبال المخروطية بارتفاع ٣٠٠٠ قدم من الجرانيت، والتي لا يمكن الوصول إليها، على وادي الحمض الذي توجد به قرية الشيخ وتسمى أم الضريبة، وهنا في العصور القديمة كانت قوافل الحج إلى مكة تتوقف عادة للتزود بالماء والإمدادات الأخرى كما كانت بلي تعيش في ازدهار من حركة هذه القوافل التي كانت في أكثر من مرة خلال عهد الأتراك والأشراف قد تعرضت للخطف والتوقيف نظير فدية، ولتفادي مثل هذه الحوادث أقامت الحكومة التركية نظام الصُرّة أي المعونات القبلية. وهو الآن معطل مؤقتاً، على الرغم من أن جميع القبائل في السعودية تحصل على أرزاقها نقداً أو عيناً على أساس مختلف نسبياً.

ومن النقطة المميزة التي أقف فوقها كنت أستطيع رؤية قناة الخور العريضة حوالي خمسة أميال عكس اتجاه التيار في منطقة تلال منخفضة، وعلى مسافة ثلاثة أميال باتجاه التيار حتى النقطة التي تلتقي عندها بالرافد الأكبر لوادي المياه الذي ينحدر من جبال الكُرّ والنبه الشاهقة والبعيدة باتجاه الشمال - الشرقي، وبعد ذلك يجري الوادي بسرعة حتى البحر.

كانت الساعة التاسعة والنصف صباحاً عندما بدأنا سيرنا، وسرعان ما وصلنا إلى قناة وادي المياه الذي يوجد به بئر المرير في غابة من شجيرات الطرفاء. وبعد أرض فضاء نجد وادي العرجاء وهو خط رئيس آخر من خطوط التصريف ويستمر حتى البحر ماراً بجوار نتوء شديد التآكل من الحجر الجيري، مثل نتوء ديرة الملاحة، وفي هذه الأرض الفضاء صادفنا أعمال منجم ذهب آخر، يعرف باسم الخور وأحياناً يسمى جبل الأبيض على بُعد ستة أميال من أم القرايا.

وعندما وصلنا إلى قناة وادي العرجاء نزلنا فيه عبر طريق السيارات الحديث من الوجه إلى العُلا، وواصلنا السير حتى مضيق ضيّق بين أجراف جرانيتية، التي يتسع بعدها الوادي بسرعة بين طبقات من الحصى تعلوها جبالٌ من الحجر الجيري. ووصلنا الطريق الجنوبي الرئيس قبل نتوء ديرة الملاحة بمئات قليلة من الياردات ثم انعطفنا لنتابعه حتى الساحل. عند هذه النقطة كانت المسافة للوجه خمسين ميلاً تقريباً بهذا الطريق.

وكنا الآن نسير على مقربة من البحر على سبخة طينية شاسعة الامتدادات المتناثرة من الأودية الكثيرة وهي طويّل والغليفين ووادي المرّة وهي امتداد لوادي أبا القَزاز والرميحية، وتوجد رقعة بستان اصطناعي واسع (شورة) على خط الشاطئ على طول فوهة وادي

المُرّة ومن الجانب البعيد من الرميحية، بعد حوالي تسعة أميال من قناة العرجاء دخلنا بقعة تلال رملية شاسعة في الدلتا الحقيقية لوادي الحمض، والذي يمتد مسافة بعيدة إلى الغرب في قناة رأس كَرْكُمَة الواسعة حيث ينتهي بغطاء منخفض مصفر اللون ومنه جاء اسمه (يعني الكركم).

وكنت الآن قد تجاوزت المدى الذي غطته رحلات موسل بكثير، وقاسيت من عدم اصطحابي النسختين اللتين أحتفظ بهما من كتابي ريتشارد بيرتون عن مدين ومعادنها. لقد زار بالطبع أعمال أم القرايا والخور، علاوة على المرور في المسْمَاء أحد روافد وادي العرجاء، الذي لا أعلم عنه شيئاً الآن. والخطأ الأسوأ من ذلك كان مرورنا بتل الكبريت غير مدركين به وهد يسمى طُوَيِّل الكبريت على مرمى حجر في وادي طويّل من الطريق. والآن كنا على وشك عبور دلتا الحمض دون أن ندرك أنه على بُعد ميلين عكس اتجاه التيار توجد أنقاض معبد نموذجي قديم وقد زاره بيرتون ووصفه بالتفصيل. وقد استطعت في الوقت المناسب أن أعوّض هذه الهفوات بعد دراسة أعمال بيرتون عند عودتي إلى مكة. وفي هذه الأثناء كنا مضطرين لعبور دلتا وادي الحمض كثيرة القنوات، التي يبلغ اتساعها حوالي ستة أميال على طول الدرب الذي يمر خلال بعض الرقع الصعبة من الرمل الناعم مع بئر القُرْنَة المالحة على مسافة نصف ميل تقريباً من

النقطة التي دخلنا عندها الدلتا. وكانت المنطقة كلها مغطاة تماماً بشجيرات الطرفاء والنباتات الأخرى، بينما يوجد بعد دلتا الحمض سهل حصوي واسع، فيه كثيرٌ من الأودية الضيقة ذات الأشجار، وعند حافتها ينقسم الطريق إلى فرعين، يتجهان على التوالي نحو جنوب - جنوب - شرق وجنوب - شرق. يمتد الطريق الأول حوالي خمسة عشر ميلاً حتى البحر وعلى طول الساحل ستة أميال ثم يلتف للداخل ليلتقي بالطريق الثاني الأكثر استقامة، ولكنه مع ذلك أشد الطريقين صعوبة ووعورة، لاسيما بعد الأمطار الغزيرة، عندما يصبح من المستحيل تقريباً التغلب على أوديته المعترضة الكثيرة. ويتقابل الطريقان في المنطقة المجاورة للضفة اليمنى من قناة مهمة تسمى مشاش الكلب (من نبع أعلى التيار) أو الروضة والتي عندها يكون الطريق الطويل المجاور للبحر قد امتد سبعة وثلاثين ميلاً تقريباً.

وعلى كل حال كنا في هذه المرة قد سلكنا الطريق المباشر، واستغرقنا ساعة ونصف الساعة لنصل إلى النقطة نفسها، ربما لمسافة ثلاثين ميلاً تقريباً، أو أقل منها قليلاً، على الرغم من أن عداد السرعة المعطوب لم يعطنا أي معلومات في هذا الشأن. لقد عبرنا عدداً من الأودية في طريقنا مثل السويلك والحيران وغيرها ولكن دليلنا لم يكن متأكداً تماماً من أسمائها، واضطررت أن أنتظر حتى

رحلاتي اللاحقة لأحصل على فكرة أفضل عن دراسة هيدرولوجية تهامة في هذه المنطقة. ومن مشاش الكلب فصاعداً كنا نرى لمحات من البحر على فترات متقطعة على بُعد ميلين أو ثلاثة أميال فقط وعلى الأخص عند عبورنا شعيب الرفيع بعد حوالي أربعة أميال، والذي يمثل فمه مرسى للسفن الشراعية الخفيفة في البحر الأحمر.

وبعد ميلين كان وادي شبيرم يمتد أيضاً في الميناء نفسه، وبعد ذلك بميلين آخرين صادفنا منطقة مسطحة غير عادية تشبه الطاولة، من الصخور بجوار الطريق، على ارتفاع يبلغ أربعة أقدام ومكوّنة بالكامل تقريباً من صخور مرجانية تحجرت حديثاً. من هنا فصاعداً كنا نسير سيراً طيباً على تربة حصوية ثابتة حيث كنا قد اقتربنا من منطقة تشبه المتنزه من لسان طويل من الحمم البركانية (حرّة القلب) الممتدة حتى البحر بلسان بارز، وبالقرب منه كانت البعثة المصرية لمكافحة الجراد تنصب خيامها.

تعرف منطقة المتنزه باسم روضة الهليل وتتكون من التقاء دلتا واديين هامين هما عمك ومرخ. ويقع حقل الحمم البركانية بالكامل إلى الغرب من طريق السيارات ويشكل الضفة اليمنى لوادي المزيهيرة الذي دخلناه الآن ونزلنا ميلاً واحداً نحو طرف ضفته البعيدة على شاطئ البحر. إن أشجار السنط النامية نمواً طيباً والنباتات الغنية الكثيفة في الوادي، التي تعلل بلا ريب وجود بعثة

مكافحة الجراد كانت حتى الآن أفضل عرض لخضرة الربيع التي رأيناها طوال رحلتنا كلها، وكان امتداد صغير من الحمم البركانية يغطي الطرف البحري من الضفة اليسرى، التي وصلناها عند جبل حصباء منخفض، وكانت المسافة من مشاش الكلب حتى ضفة الوادي اليمنى تبلغ سبعة عشر ميلاً، مع تل صغير متحجر في نصف المسافة تقريباً، بينما كان الطريق في الوادي حتى البحر مساحته ستة أميال.

والآن سرنا قريباً بمحاذاة الساحل في أرض رملية ناعمة نسبياً، والتي أعاقت تقدمنا إلى حد ما، وفي النهاية أجبرتنا على الخروج إلى حافة البحر حول خليج الدغّم وهي قرية صغيرة من المزارعين قرب الساحل، وكوخ أبيض لحرس السواحل على الجرف الآخر، سرنا مسافة طويلة كانت العجلات الخارجية للشاحنة داخل مياه البحر فعلاً بين العجلات القريبة في الرمل المبلل من المد العالي. وبالقرب من نخيل الدغم مباشرة وبعد خمسة أميال من الزحف على طول الساحل، والسيارة تسير في الماء وخارجه في الوقت نفسه شققنا طريقنا إلى المناطق الداخلية صاعدين على منحدر بينما زراعة البدو المتفرقة على تلال القرص عن يسارنا، وصلنا إلى هضبة وبساتين نخيل الغبايا المتناثرة ولكنها شاسعة، التي يُعتقد أنها تمثل قرية لوك كومي القديمة والتي كان ميناؤها على موقع أملج الحديثة، على بُعد ثلاثة أميال فقط.

وأعتقد أن بيرتون هو الذي أطلق الاسم العربي «الحوراء» على هذه المنطقة ولكن مثلما الحال في خرائب مدين لا يبدو أن هناك مصداقية صحيحة لهذا الاسم. وتوقفنا مدة وجيزة عند بئر العجيوة لسحب الماء، مثلما يفعل أهل أملج أيضاً عادة، وهي بئرٌ دائرية مبنية بطريقة جيدة في الصخر وبها ماءٌ عذبٌ وفير عند عمق ثلاث قامات فقط. وكان لها قمة إسمنتية سمكها قدم تقريباً من البناء الحجري حول الفوهة. وبعد ذلك مررنا بوحدات أخرى مختلفة من الواحة حتى وصلنا في الوقت الملائم إلى أملج حيث تم استقبالنا بحفاوة في بيت الحكومة لقضاء الليل.

كان فهد بن عبد العزيز وهو مواطن من قرية ضرماء الباسلة في وسط الجزيرة العربية، قد قضى الآن العام الرابع من ولايته بأملج، وكنت أعرفه قبل ذلك بعشرين عاماً عندما كان أميراً على العلا. ولقد قام -بالتأكيد- باستضافتنا بشكل أميري، حيث دعا جميع أعضاء السلطة الرسمية في إمارته والأعيان والوجهاء بالمدينة للاجتماع بنا على العشاء، وتم توفير مأوى لنا في بيت فخم، على الرغم من قدم طرازه نسبياً، على الجرف البحري المنخفض، حيث كانت الأمواج تهدهدنا للنوم في الوقت المناسب برشرشة لطيفة وهي ترتطم بالشاطئ تحتنا. ويقال إن اسم المكان يعود إلى صوت الاصطدام هذا (فكلمة لجّة تعني إصدار ضوضاء) بالرغم من أن نفس الكلمة يبدو أنها تعني أيضاً "عمق الماء".

وبالقرب منا كان فوق الصخور المسطحة الصغيرة في البحر مئات من طيور النورس والطيور الأخرى تبيت خلال الليل، وصار سطح الصخور أبيض من ذرق (روث) الطيور. وكان عدد السكان، بمن فيهم المهاجرون الكثيرون من مصر -مثلما الحال في ضباء- حوالي ٢٠٠٠ نسمة، في حين أن سجل المعونات الخيرية للمنطقة كان يضم ٧٠٠٠ شخص، شاملاً القرويين في الواحة والبدو من حولها. وكان القاضي المحلي فلسطينياً من نابلس، الذي هاجر أبوه إلى هنا خلال الحرب العالمية الأولى وظل مديراً للمدرسة المحلية لسنوات كثيرة. وكان مدير مكتب العوائد رجلاً يدعى عبد الله الجليداني من المدينة المنورة وكان طيباً بدرجة كافية حتى إنه اصطحبني في جولة حول المدينة والميناء، اللذين تم تطويرهما حديثاً نسبياً وبهما شوارع مخططة تخطيطاً حسناً والكثير من المباني الجديدة.

وقال لي: إن الطلب على البيوت كان شديداً جداً حتى إن العمال غير المهرة الذين يتم استخدامهم في التشييد كانوا يتقاضون أجراً كبيراً يصل إلى جنيه في اليوم.

وكان بناء القوارب من تخصص هذه المدينة، ويبدو أن الميناء كان مليئاً بالسنابك. وقد رأيت إحداها على الشاطئ وهي جاهزة لتوها للانطلاق. والسوق مليئة بالبضائع من السويس وجدة، وكان بالتأكيد يبدو شديد الحركة تماماً. وكان الفحم النباتي من الصادرات

الرئيسة إلى أسواق السويس، بينما كانت أصداف الكوكيان ترسل إلى بورسودان، حيث تذهب من هناك إلى إيطاليا بصورة رئيسة لتجارة أم اللؤلؤ. وبعد الوادي والخليج الصغير الذي يمتد في الميناء ويفصل المدينة عن الخط الساحلي البعيد، يوجد عدد من الضواحي التي يسكنها بشكل رئيس الصيادون وعائلاتهم وهي الصيادلة (وسميت بذلك على اسم أحد أقسام قبيلة جهينة) وأم الحوت وواحدة أو اثنين آخرين، كلها متراصة على الجبل المنخفض الذي يمتد متوازياً ولصيقاً بالبحر. وفي أحد المرات كان هناك حديث عن استغلال رواسب ذرق الطيور على الجزر الكائنة في المنطقة المغمورة، وأكبرها جزيرة الحساني البارزة على بعد مسافة ما داخل البحر وهي غير مأهولة إلا من أعداد هائلة من طيور النورس. وفي أملج، مثل الوجه، عيادة طبية ومحطة لاسلكي، بينما توجد بها قوة شرطة من حوالي ثلاثين رجلاً ومفرزة صغيرة من ستة عشر رجلاً مسلحاً كحرس شخصي مرافق للأمير.

وقد تحركنا مبكراً في الصباح التالي وكان علينا الاختيار بين طريقين إلى ينبع، كل منهما يمتد حوالي تسعين ميلاً، أحدهما على طول شاطئ البحر والآخر يمر خلال التلال في المناطق الداخلية. وقد اخترت الأخير لأنه من المرجح أن يكون أكثر إثارة، ناهيك عن حقيقة أن الآخر قد يكون مليئاً بالسبخات أو المستنقعات في بعض

أجزائه نتيجة للأمطار والسيول الأخيرة. وبعد مرورنا بسرعة على قرى الصيادين عن يسارنا أتينا إلى مفترق الطرق في أقل من ثلاثة أميال في الدلتا الواسعة لوادي الغُمَيْر الذي تركنا نخيله على يميننا عندما كنا نحرث طريقنا في رماله وحصبائه الناعمة لندخل في قناة شعيب مطيردة المنحدر خلال ممر صخري ضيق على بُعد حوالي خمسة أميال من أملج.

وكانت الأجراف البازلتية على كلا جانبينا بهية المنظر بدرجة كافية، ولكن آمالي في العثور على نقوش قد خابت.

وفي الحقيقة لم أجد شيئاً على الإطلاق من رأس وادي الأبيض مروراً بمدين وعلى طول سهل تهامة، في حين أنه في هذا الركن الشمالي - الغربي من الجزيرة العربية كنت آمل أن أصادف نصوصاً من النوع السينائي القديم. ونظراً لأن الطريق الساحلي قد أدى دوراً مهماً في جميع العصور، في تجارة الجزيرة العربية وموقعها الاستراتيجي، فمن الصعب أن نفسر التباين بين الصخور الصامتة في السهل والأجراف "الثرثارة" في حسمى. وربما وجد المسافرون بالقوافل الساحلية الأسطح البازلتية والجرانيتية في المنطقة غير مناسبة للكتابة عليها، على الرغم من أنها لم تهمل تماماً في المناطق الداخلية. وهناك تفسير آخر محتمل وهو أنهم ربما كانوا يستخدمون

مواد أشد حداثة في اتصالاتهم مثل ورق البردي أو الجلد، الذي لن يبقى طويلاً إلا في ظروف غير عادية.

التزمنا قناة مطيردة ثلاثة أميال قبل أن نتركها لنصعد رافداً يسمى المنسفة الذي سرنا من رأسه في طريق جبلي متعرج هبوطاً وصعوداً في واديين ضيقين لنصل إلى سفح ممر يشتهر باسم طلعة السويلم تخليداً لذكرى تطوير هذا الطريق من قبل أمير نجدي سابق لأملج. وكانت هذه الطلعة في الواقع العقبة الحقيقية الوحيدة في مسافة التسعين ميلاً بين أملج وينبع، ولكنها لم تكن مستحيلة العبور. وهناك ممر صخري ضيق يؤدي إلى أرض فضاء واسعة يغطيها رمل ناعم، في دائرة من التلال البازلتية، منها ينزل الطريق بممر صخري منحدر إلى رأس شعيب الوكالة الواسعة. وكان ابن سويلم قد أمر برصف الطريق عبر هذه الأرض الفضاء بالحجارة على الرغم من أن بعض الحشوات قد تآكلت وانجرفت مع المياه، وانغرزت السيارة في الرمل كما هو متوقع وانتهى الأمر للحظات قليلة من المعالجة اليدوية.

بعد هذه الهضبة يوجد حوض رملي عظيم على هيئة قمع كوّنه وادي وكالة وواجد، وينزل بانحدار من خلال ممر ضيق في الجبل الساحلي حتى البحر. وبعد أن ينزل الطريق باتجاه الجنوب - الغربي في شعيب الوكالة، يلتف فجأة للجنوب - الشرقي صاعداً في وادي

واجد عند التقائهما، الذي كان كوماً حقيقياً من رمال عميقة. ولم يكن هناك طريقة لتفادي هذه المشكلة التي يجب أن نتغلب عليها بالكامل بشيء من المشقة لرفاقي. وقد قضيت هذه اللحظات في أنشطة جغرافية. وفي الوقت المناسب وصلنا رأس واجد لننزل في وادي القُوَاق الرملي الواسع، ولكنه ليس صعب العبور وهو يمتد حتى البحر في دلتا واسعة بعد الحاجز الضيق من الجبل الساحلي، وبعد عبوره دخلنا في أرض فضاء طويلة بين جبال بازلتية منخفضة ومكسوة بشكل كثيف بأشجار وشجيرات السنط، وتمتد حوالي أربعة أميال من هنا فصاعداً.

كان هذا هو شعيب العميري الذي كانت رأسه على بعد اثنين وعشرين ميلاً من نقطة انطلاقنا في أملج، ومنه مررنا عبر الأطراف الممتدة من منحدرٍ على هيئة مروحة ذي جداول مائية صغيرة متعددة تتجمع عند صدعٍ في الجبل الساحلي على يميننا، ومن خلاله تنساب لتلتقي بدلتا وادي القُوَاق واسم هذه المنطقة على الأرجح هو أم حماة ربما من اسم التلال المنخفضة التي تغطي امتداد الأرض الدائرية، حما وجمعها حمم. على الرغم من أنه خلال رحلاتي المتنوعة على طول هذه المنطقة كان من الواضح أن الأدلاء لديهم آراء مختلفة فكانوا يسمونها أم حماة أو أم خميس أو مخيمس أو أم خماة. التزمنا طريق قوافل الحجاج شديد الوضوح من النقطة التي

صعدنا عندها من وادي القُوَاق حتى منطقة العميري الفضاء متجهين نحو آبار وادي نَبْط أمامنا، التي تعطي اسمها للطريق لتميّزه عن الطريق الساحلي (درب البحر). وبعد منطقة أم حماة بقليل يتجه الطريق موازياً لواد كبير يسمى أم حرمل والذي ينحدر عبر تلال تقع على يسارنا، ولكنه يظل ملازماً للأرض المرتفعة، التي سرعان ما أتينا فيها على قبر يُعرف باسم قبر العبد تخليداً لذكرى حادث من الحرب العالمية الأولى، حيث كانت مفرزة صغيرة من جيش الأمير فيصل بقيادة عبد -الذي لم يذكر اسمه على الرغم من شجاعته الأسطورية- قد تصدت لقوة من الأتراك عند هذه النقطة في ١٩١٦م خلال زحف الأشراف على الوجه. وقد قتل العبد هنا، وتقهقر رجاله على طول الطريق يطاردهم الأتراك.

وصلنا تلك البقعة التي تعرف باسم قبر العبد في الوقت المناسب بعد حوالي خمسة أميال من السير، وقد أجبرت هذه المفرزة على قتال الأتراك الذين قضوا عليها بالكامل، وبقيت هذه المقابر تخليداً لذكرى هذه الحادثة، وأصبحت مزاراً دينياً للبدو المحليين. وقد تم وضع كتل ضخمة من الجرانيت والكوارتز على القبور، وعلى إحداها وجدنا رأس وعظام خروفٍ ذُبح تضحية للشخص المدفون فيه، كما قام الزوار أيضاً بتحديد مكان قريب للصلاة وأحاطوه بحجارة مزينة، ومحراب الصلاة العادي متجه

تقريباً نحو الجنوب تماماً (٥ر١١٧ درجة). بعد هذه النقطة تلتقي قناة أم حرمل بقناة أخرى تسمى الحوضة أو " الحضة " والوادي المشترك يعبر الطريق ليلتقي بوادي نبط بعد عدة أميال، ومررنا في مجمع جذاب نسبياً من تلال وكتل من الجرانيت الرمادي تسمى الدباب وخلالها قادتنا أرضٌ فضاءٌ شاسعةٌ من الرمل الناعم إلى وادي نبط الرائع الذي يرتفع في جبل رضوى الشهير والشاهق بارتفاع يصل ٦٠٠٠ قدم، الذي يُعرف تقليدياً بأنه أحد جبال الجنة السبعة. وكانت جماعة من نسوة جهينة يسقين أغنامهن عند الآبار الواقعة على مسافة قريبة من الوادي بين أجراف حادة من الجرانيت الوعر.

وكان الأتراك قد نظموا هذه المجموعة من الآبار لمصلحة الحجاج، والثلاثة المستخدمة الآن منها، ماؤها عذب غزير على عمق ثلاث أو أربع قامات، وهي قصبات دائرية مشيّدة بالحجارة أقطارها ١٥ قدماً و ١٠ أقدام و ٨ أقدام على التوالي، ولم يكن أصغر هذه الآبار مستخدماً في هذا الوقت لأنه قد دفنته السيول ولم يكترث البدو بعدُ بحفره مرة أخرى.

وعلى مقربة منها كانت توجد أساسات مبنى ربما كان قلعة لحراسة المروى، وربما كانت هذه الآبار تمثل الجزء العلوي من خزان. ويرتفع الجانب الأسود من جبل رضوى شاهقاً فوق منطقتي الدباب وبض الموجودتين على حافتي الوادي يمتدان في مساحات مليئة بجلاميد

الصخر والكتل الجرانيتية الضخمة التي تنتشر انتشاراً واسعاً بغير نظام في الجبال والمنحدرات لتعطي مشهداً موحشاً من الفوضى الطبيعية بأقصى ما يمكن أن يتخيله المرء. وكانت آبار نبط على بُعد ستة وثلاثين ميلاً تقريباً على طريقنا من أملج.

ومنها تمتد أرض فضاء ضيقة عبر الجبل من الضفة اليسرى للوادي لتؤدي إلى وادي مُرَتِّجة وهو رافد يلتقي به في أسفل مجراه. ومنه مررنا منذ مدة داخل التلال على ضفته اليسرى بأرض فضاء صاعدة وهابطة، وفي أعلى نقطة بها أتينا على مقبرة للحجاج وبعض الركام الحجرية بجوار تل صغير منخفض (عشرة أميال من آبار نبط)، وقد أخطأ بعض الأدلاء في اسم هذه القبور، التي سموها المذبح بدلاً من تلك القبور الخاصة بالعبد ورجاله الذين ذبحهم الأتراك في ١٩١٦م. وبعد الهبوط نحو ميلين من هنا دخلنا في وادي العجال الواسع، ومنه مررنا في رافد أبروطه إلى مضيق بين قمتين، ومنه نزلنا في وادي حَسَنَة الذي يمتد في النهاية حتى البحر بواجهة دلتا واسعة، تسمى أحياناً النميصة أو النماصة تبعاً لرافدين بهذين الاسمين يأتيان من الضفة اليمنى.

وتوجد آبار في الرافد الأخير على مسافة قريبة عكس اتجاه التيار من نقطة الالتقاء التي عندها كان الحجاج يتزودون بالماء عندما يرغبون، ويَكُون الفرعان قريبين من بعضهما عند نقطة على مسافة

ثلاثة وعشرين ميلاً تقريباً من آبار نبط، بينما كان الوادي الرئيس، الذي يتراوح عرضه بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ ياردة، يمتد نازلاً حوالي خمسة أميال إلى ثنية يلتقي عندها بقناة كبيرة أخرى، هي وادي خمال، ولتفادي الثنية والرمال الكثيفة عند التقاء القنوات، يأخذ الطريق مساراً مختصراً عبر جبل الضفة اليمنى بممر يعرف باسم المستعجلة أي الطريق المختصرة، باتساع حوالي ٢٠٠ ياردة فقط. وفي وسطه يوجد متراس أو جدار مصنوع من كتل صخرية كبيرة، لا شك في أنه كان حاجزاً لاستخراج رسوم غير شرعية من الحجاج المارين بالطريق.

ومنه نزلنا بسهولة إلى قناة وادي خمال وبعدها وجدنا أنفسنا في أرض فضاء رملية شاسعة، تمتد باتجاه الجنوب - الشرقي بالتوازي مع سهل تهامة العظيم عن يميننا ولم يكن يفصله عنا إلا جبل الخنيفة الطويل النحيل، ويسمى هذا الممر أحياناً دبة الخنيفسة في حين أن الجزء الممتد نزولاً حتى وادي خمال يسمى شعيب «أبو خربوش»، ويمتد حوالي خمسة أميال لكي يقطع جبل الخنيفسة الجرانيتي، الذي يخرج به طريق الحجاج في النهاية من التلال في رحلة شاقة طويلة عبر السهل حتى ينبع البحر، على بعد ثمانية عشر ميلاً من هنا.

لقد كانت المنطقة الجبلية كلها التي قطعناها منذ مغادرة أملج جافة نسبياً ومهجورة لا حياة فيها بسبب عدم هبوط الأمطار الموسمية تماماً

وانعدام السيول العادية في الشتاء. وكان سهل تهامة الذي يمتد أمامنا الآن في قفر لا حدود له فيما يبدو، يعرف باسم الخبت وشرعنا في آخر مرحلة من رحلتنا، بعد أن سافرنا ثلاثين ميلاً من آبار نبط وستة وستين ميلاً من أملج.

إن سهل تهامة ليس منبسطاً كما يبدو من أول وهلة، وليس كئيباً كما قد يتصور المرء، وهو قد تكّون بوصة بعد بوصة من الطمي والركام المنجرف إليه من الجبال على مدى مليون سنة أو يزيد حيث دفع البحر أمامه حوالي عشرين ميلاً حتى تتكون منطقة ينبع. وكان ذات يوم أرضاً عظيمة للصيد والقنص؛ بما يحويه من عشرات الآلاف من الغزلان حسبما يستطيع الناس الذين ما زالوا أحياء أن يتذكروا على الرغم من أن العلم ومنتجاته التي استخدمها الأمراء والفلاحون غير المسؤولين، قد مسحتها تماماً عن وجه الأرض. ولا يزال المرء يرى الغزلان بأعداد صغيرة جداً في المراعي الغنية التي تحييها السيول الموسمية في قفر الخبت الشاسع، المتكون من دلتا أنهار عدة تخرج من المرتفعات.

وتصب فجوة الخنيفسة وجبلها الجرانيتي المنخفض الممتد لحوالي ثلاثة أو أربعة أميال على جانبيها بالشمال والجنوب، بعضاً من مياه التصريف في حوض دائري واسع يسمى شعيب الحج. وقد سُميّ بذلك لأن قوافل الحجاج اعتادت أن تخرج من الرحلة المخيفة الشاقة

عبر الجبال لترتاح قليلاً هنا وترعى إبلها، قبل أن تستأنف سيرها المستقيم عبر السهل. وفي الطرف الجنوبي من جبل الخنيفسة، يمتد خط مماثل منخفض من التلال للخلف نحو الشرق على طول سفح جبل رضوى الذي كانت قممه وأجرافه الكثيرة تلوح الآن فوق المنطقة عن قرب، وبينها واحد من روافد وادي ينبع النخل.

وتتكون قناة الحج من خطوط تصريف عديدة تتجمع مع بعضها من نقاط مختلفة في المنطقة المرتفعة لتمر في السهل بين الجبل ذاته وعلى طول ضفته اليمنى وجبل التفيدة الذي يتجه عبره طريق الحجاج إلى امتداد حصوي كبير، الذي يجري فيه وادي العويص المنحدر من رضوى.

وعبرناه عند التقائه مع شعيب الجُفينة وهو قناة قصيرة مليئة بالشجيرات والأشجار الصغيرة، التي تصرّف مياه جبل النقيرة الصغير. وبعده بأميال قليلة مررنا بين حوضين واسعين بالاسم نفسه، مليئين بالشجيرات.

وبعد هذا مرة أخرى تقع قناة وادي الغرّة الواسعة، التي ترتفع أيضاً في رضوى بالشمال - الشرقي وتنثني تقريباً للغرب تماماً لتلتقي بالبحر شمال ينبع، وقد أصبحت ينبع بمآذنها ومبانيها العالية الآن واضحة للعيان لأول مرة، على بُعد خمسة أميال عبر سهل الفسل المنبسط.

لقد انتهت رحلتنا من ناحية عملية وكان همنا الوحيد أن نصل إلى جدة بأقصى سرعة ممكنة، ولكن اللباقة على كل حال، كانت تقتضي منا زيارة أحمد بن عيسى، الأمير النجدي للميناء والمنطقة حيث أمضينا ساعتين رائعتين ونحن نرشف القهوة والشاي في صحبته الساحرة قبل أن نستأنف سيرنا عند حوالي الساعة الخامسة عصراً. وبسبب عدم نزول الأمطار خلال موسم الشتاء كان الطريق الساحلي المباشر عبر سبخات طينية واسعة ومستنقعات جافة صالحاً للسير، وسرنا بلا توقف حتى العاشرة مساءً، إلى أن وصلنا إلى قهوة وفندق المستورة لنرتاح في الليل على كنبة (سرير) في جو الساحل المعتدل، والرطب قليلاً.

لقد سرنا تسعين ميلاً من ينبع، و١٧٤ من أملج فيما يزيد عن ثلاث عشرة ساعة بقليل، تشمل جميع الوقفات أي تقريباً عشر ساعات من التحرك الحقيقي، وخلالها كان السيد وشاحنته القديمة يتصرفان بأقصى قدر من مراعاة الآخرين وظروفهم؛ إن الحمار المرهق سوف يُظهر أحياناً أفضل خطواته عند نهاية يوم طويل ليصل إلى العلف المطلوب والمأوى في حظيرته. وكنا قد استيقظنا مبكراً في صباح الغد من يوم ٢٣ فبراير ١٩٥١م، وبحلول وقت الغداء كنا قد وصلنا إلى بيتنا بجدة، بعد أن قطعنا ١١٨ ميلاً في ست ساعات. وكنت قد خرجت من الرياض قبل ذلك بثمانية وتسعين يوماً، وفي

هذه المدة سافرت نحو ٣٠٠٠ ميل، معظمها في أرضٍ لم يكتشفها أي أوروبي أبداً من قبل. ولقد رأيت الكثير من مدين مما يجعلني أرغب في رؤية المزيد منها، والفرصة لعمل ذلك قد تسنح خلال العام في الغالب.